



فنّ الصبر في السياسة الإيرانية الجدور التاريخية والاستراتيجيات المعاصرة

بقلم

الباحث بختيار أحمد صالح



تأسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية عام 2008 بمدينة بابل (الحلة)، وحصل على شهادة التسجيل من دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة 1Z71874 بتاريخ 2012/12/25، بوصفه مركزاً علمياً بحثياً يهتم بدراسة الموضوعات السياسية والاجتماعية، فضلاً عن الاهتمام بالقضايا والظواهر الراهنة والمحتملة في الشأن المحلي والإقليمي والدولي، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

- لا يجوز إعادة نشر أي من هذه الأوراق البحثية الا بموافقة المركز، وبالإمكان الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً.
- لا تعبر الآراء الواردة في الورقة البحثية عن الاتجاهات التي يتبناها المركز وإنما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

للتواصل

مركز حمورابي

للبحوث والدراسات الاستراتيجية

العراق - بغداد - الكرادة

+964 7810234002

hcrsiraq@yahoo.com

www.hcrsiraq.net

مقدمة

تُعدّ إيران من الدول القليلة التي طوّرت عبر تاريخها الطويل ثقافة سياسية واستراتيجية قائمة على إدارة الصراع من منظور زمني ممتد، حيث لا يُنظر إلى الوقت بوصفه عاملاً محايداً، بل باعتباره مورداً استراتيجياً يمكن توظيفه لتحقيق أهداف سياسية وأمنية بعيدة المدى. ومن هذا المنطلق برز ما يمكن تسميته بـ(فنّ الصبر) في السياسة الإيرانية، وهو نهج يقوم على تجنب المواجهات الحاسمة قبل تهيئة الظروف المناسبة لها، واستثمار عامل الزمن في استنزاف الخصوم وإعادة تشكيل موازين القوى تدريجياً.

وقد اكتسب هذا النهج أهمية خاصة في العقود الأخيرة، ولا سيما بعد قيام الجمهورية الإسلامية عام 1979، حيث واجهت إيران سلسلة من الأزمات والحروب والعقوبات والضغط الدولي. ورغم هذه التحديات، استطاعت الدولة الإيرانية الحفاظ على تماسكها السياسي وتوسيع نفوذها الإقليمي بدرجات متفاوتة، الأمر الذي دفع العديد من الباحثين إلى دراسة العلاقة بين الثقافة الاستراتيجية الإيرانية وقدرتها على إدارة الصراعات طويلة الأمد.

ولا يقتصر مفهوم الصبر في الحالة الإيرانية على البعد السياسي فحسب، بل يمتد إلى الجوانب التاريخية والثقافية والدينية التي أسهمت مجتمعة في تشكيل رؤية خاصة لإدارة الأزمات. فالتجربة الإمبراطورية الفارسية، والإرث الصفوي، والثقافة الشيعية، والتجارب الحديثة مع التدخلات الأجنبية، جميعها ساهمت في ترسيخ قناعة مفادها أن الزمن قد يكون أكثر فعالية من القوة العسكرية المباشرة في تحقيق الأهداف الاستراتيجية.

تهدف هذه الورقة إلى تحليل الجذور التاريخية والثقافية لفنّ الصبر في السياسة الإيرانية، وبيان تجلياته المعاصرة، وخاصة في الملف النووي الإيراني والعلاقات مع الولايات المتحدة، فضلاً عن تقييم تأثيره في التوازنات الإقليمية ومستقبل النظام الإقليمي في "الشرق الأوسط".

أولاً: الجذور التاريخية لفنّ الصبر في السياسة الإيرانية

الإرث الإمبراطوري الفارسي

يعود جانب مهم من العقل الاستراتيجي الإيراني إلى التجربة الإمبراطورية الفارسية التي امتدت لقرون طويلة. فقد اعتمدت الإمبراطوريات الفارسية، وفي مقدمتها الإمبراطورية الأخمينية، على مزيج من القوة العسكرية والإدارة السياسية المرنة. ولم يكن الهدف دائماً تحقيق انتصارات سريعة، بل الحفاظ على استمرارية الإمبراطورية وإدارة التوازنات بين الشعوب والأقاليم المختلفة.

لقد أدرك الحكام الفرس مبكراً أن البقاء لفترة أطول من الخصم يمثل شكلاً من أشكال الانتصار. ولذلك اتسمت سياساتهم بالقدرة على التكيف مع الظروف المتغيرة، واستخدام التحالفات، وإدارة الانقسامات داخل معسكرات الخصوم. وقد ترك هذا الإرث بصمات واضحة على الثقافة السياسية الإيرانية التي لا تزال تنظر إلى الصراع باعتباره عملية ممتدة وليست حدثاً عابراً.

الدولة الصفوية وترسيخ الهوية السياسية

شكّل قيام الدولة الصفوية في القرن السادس عشر محطة مفصلية في التاريخ الإيراني. فإلى جانب تأسيس دولة مركزية قوية، عمل الصفويون على بناء هوية مذهبية وسياسية متميزة عن محيطهم الإقليمي، وخاصة الدولة العثمانية. وخلال الصراع الطويل مع العثمانيين، أدرك الصفويون أن المحافظة على الدولة قد تتطلب أحياناً التراجع المرحلي أو عقد تسويات مؤقتة بانتظار تغير موازين القوى. ومن هنا أصبح مفهوم النفس الطويل جزءاً من الثقافة السياسية الإيرانية، حيث لم يكن التراجع يُنظر إليه باعتباره هزيمة نهائية، بل خطوة مؤقتة ضمن صراع أطول مدى.

الثقافة الشيعية وفلسفة الانتظار. لا يمكن فهم مفهوم الصبر في السياسة الإيرانية من دون التوقف عند أثر الثقافة الشيعية في تشكيل الوعي السياسي. فمفاهيم الصمود والابتلاء والانتظار تحتل مكانة مركزية في الفكر الشيعي، خصوصاً من خلال الرمزية المرتبطة بواقعة كربلاء. وقد انعكست هذه المفاهيم على الخطاب السياسي الإيراني المعاصر، حيث غالباً ما يتم تقديم العقوبات والضغوط الخارجية بوصفها اختباراً للصمود الوطني، في حين يُنظر إلى الاستمرار في المقاومة باعتباره جزءاً من معركة تاريخية طويلة تتجاوز الحسابات الأنية قصيرة المدى.

ثانياً: تشكل العقل الاستراتيجي الإيراني الحديث

أثر التدخلات الأجنبية

ساهمت سلسلة التدخلات الأجنبية في إيران في تعزيز النزعة الحذرة داخل مؤسسات صنع القرار. ويُعد انقلاب عام 1953 ضد حكومة محمد مصدق أحد أكثر الأحداث تأثيراً في الوعي السياسي الإيراني الحديث. فقد رسخت تلك التجربة اعتقاداً لدى النخب الإيرانية بأن القوى الكبرى قد تلجأ إلى أدوات غير مباشرة لتغيير الأنظمة وإعادة تشكيل البيئة السياسية الداخلية. ولذلك تطورت لدى إيران رؤية أمنية تقوم على تجنب الانكشاف الاستراتيجي وبناء أدوات نفوذ طويلة الأمد قادرة على مواجهة الضغوط الخارجية.

الثورة الإسلامية والحرب العراقية الإيرانية

مثلت الثورة الإسلامية عام 1979 نقطة تحول جوهريّة في السياسة الإيرانية. وبعد أقل من عام على نجاح الثورة، وجدت إيران نفسها في مواجهة حرب طويلة مع العراق استمرت ثماني سنوات. وكان لهذه الحرب أثر عميق في تشكيل التفكير الاستراتيجي الإيراني، إذ عززت أهمية الصمود طويل الأمد، وأظهرت أن القدرة على تحمل الخسائر والاستمرار في القتال قد تكون عاملاً حاسماً في الصراعات الكبرى. ومنذ ذلك الحين أصبح مفهوم الاستنزاف المتبادل جزءاً أساسياً من العقيدة الأمنية الإيرانية.

ثالثاً: الصبر الاستراتيجي في السياسة الإيرانية المعاصرة

مفهوم الصبر الاستراتيجي

يقوم الصبر الاستراتيجي على تجنب المواجهة الشاملة المباشرة مع الخصوم الأقوى، مع الاستمرار في بناء عناصر القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية بمرور الزمن. ويستند هذا النهج إلى افتراض أساسي مفاده أن الظروف الدولية والإقليمية ليست ثابتة، وأن عامل الزمن قد يخلق فرصاً جديدة لم تكن متاحة في بداية الأزمة. وتعتمد إيران في هذا السياق على مجموعة من الأدوات تشمل المفاوضات طويلة الأمد، وتطوير القدرات العسكرية تدريجياً، وتعزيز العلاقات مع القوى الدولية الصاعدة، وتوسيع النفوذ الإقليمي عبر شبكة من الحلفاء والشركاء.

الملف النووي نموذجاً

يُعد الملف النووي الإيراني المثال الأبرز على تطبيق استراتيجية الصبر. فعلى مدى أكثر من عقدين، تمكنت طهران من إدارة مفاوضات معقدة مع القوى الكبرى، مع المحافظة في الوقت نفسه على جزء مهم من برنامجها النووي. ولم يكن الهدف الإيراني تحقيق انتصار سريع، بل إدارة الصراع بطريقة تسمح بكسب الوقت، وتقليل الضغوط، والاستفادة من التباينات بين القوى الدولية المختلفة. وقد تجلّى ذلك بوضوح خلال المفاوضات التي انتهت بتوقيع الاتفاق النووي عام 2015، وكذلك خلال المرحلة التي أعقبت الانسحاب الأمريكي منه عام 2018.

الاقتصاد المقاوم

في مواجهة العقوبات الاقتصادية المتزايدة، تبنت القيادة الإيرانية مفهوم الاقتصاد المقاوم باعتباره إطاراً للتكيف مع الضغوط الخارجية. ويقوم هذا المفهوم على تعزيز الإنتاج المحلي، وتقليل الاعتماد على الخارج، وتنويع الشراكات الاقتصادية الدولية.

ورغم التحديات الكبيرة التي واجهتها إيران، فقد ساعد هذا النهج على الحد من آثار العقوبات ومنح صانع القرار الإيراني هامشاً زمنياً أوسع لمواصلة سياساته الإقليمية والدولية.

رابعاً: مقارنة بين الرؤية الإيرانية والرؤية الأمريكية

يكشف تحليل العلاقات الإيرانية الأمريكية عن اختلاف جوهري في النظرة إلى الزمن السياسي. فبينما تتأثر السياسة الأمريكية بالدورات الانتخابية والضغط الإعلامية والرأي العام، تميل إيران إلى تبني منظور زمني أطول نسبياً.

ولهذا السبب كثيراً ما تراهن طهران على تغيير الإدارات الأمريكية أو تبدل الأولويات الدولية. وقد ظهر ذلك بوضوح خلال فترة إدارة الرئيس دونالد ترامب، حيث فضّلت إيران تجنب مواجهة عسكرية واسعة رغم سياسة الضغط الأقصى، مع الاستمرار في الانتظار حتى حدوث تغير في البيئة السياسية الأمريكية.

خامساً: التداعيات الإقليمية لفن الصبر الإيراني

ساهمت استراتيجية الصبر في تعزيز الحضور الإيراني داخل عدد من الساحات الإقليمية، وفي مقدمتها العراق وسوريا ولبنان واليمن. وقد اعتمدت إيران في ذلك على العمل التدريجي وتطوير شبكات نفوذ طويلة الأمد بدلاً من التدخل العسكري المباشر واسع النطاق. غير أن هذه السياسة أسهمت أيضاً في زيادة حدة الاستقطاب الإقليمي، وتعقيد عدد من الأزمات "الشرق أوسطية"، وخلق بيئة أمنية تتسم بعدم اليقين المستمر. ولذلك تختلف التقييمات بشأن نتائج هذه الاستراتيجية، فبينما تراها طهران أداة ضرورية لحماية أمنها القومي، ينظر إليها خصومها بوصفها مصدراً لعدم الاستقرار الإقليمي.

خاتمة

أن نهج فن الصبر في السياسة الإيرانية يتجاوز كونه تكتيكاً مؤقتاً ليتحول إلى عنصر بنيوي في الثقافة الاستراتيجية الإيرانية. فقد تشكل عبر تراكمات تاريخية وثقافية ودينية وسياسية ممتدة، وأسهم في صياغة رؤية خاصة لإدارة الصراعات والأزمات. لقد أظهرت التجربة الإيرانية أن الزمن يمكن أن يتحول إلى أداة قوة لا تقل أهمية عن القدرات العسكرية أو الاقتصادية. ومن خلال توظيف الصبر الاستراتيجي، استطاعت إيران في العديد من المحطات تجنب الضغوط المباشرة، واستنزاف خصومها، والحفاظ على قدر من المرونة في مواجهة التحولات الدولية. ومع ذلك، فإن نجاح هذه الاستراتيجية ليس مضموناً بصورة دائمة، إذ يعتمد على طبيعة البيئة الإقليمية والدولية، وعلى قدرة إيران نفسها على التكيف مع التحديات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتزايدة. ومع استمرار التحولات الجيوسياسية في "الشرق الأوسط" والعالم، سيبقى فن الصبر أحد المفاتيح الأساسية لفهم السلوك الإيراني في السنوات المقبلة.